مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٣٢/٢٠٠٥

الأحد ٧ آب

تذكار القديس الشهيد

في الأبرار دوميتيوس

اللحن السادس

إنجيل السَحَر السابع

الرسالة

(رومية ١٥: ١-٧)

يا إخوةُ يجب علينا نحنُ الأقوياءَ أن نحتمِلَ وَهَنَ الضُّعفاءِ ولا نُرضي أنفسَنا* فليُرضِ كلُّ واحدٍ منَّا قريبَهُ للخيرِ لأجل البُنيان* فإنَّ المسيحَ لم يُرضِ نفسَهُ ولكن كما كُتِبَ تعييراتُ معيِّريك وقعت عليَّ* لأنَّ كلَّ ما كُتِبَ من قبلُ إنَّما كُتِبَ لتعليمنا ليكون لنا الرجاءُ بالصبرِ وبتعزيةِ الكتب* وليُعطِكم إلهُ الصبرِ والتعزيةِ أن تكونوا متَّفقي الآراءِ فيما بينكم بحسَبِ المسيحِ يسوعَ* حتَّى إنَّكم بنفسٍ واحدةٍ وفمٍ واحدٍ تمجِّدون اللهَ أبا ربِّنا يسوعَ المسيحِ* من أجل ذلك فليتَّخذ بعضُكم بعضاً كما اتَّخذكم المسيحُ لمجدِ الله.

ارحمنا يا ابن داود

عندما حان، في تدبير الله، وقت خلاصنا بتجسد الابن الوحيد كانت البشرية بأسرها تعاني العمى الروحي، يهوداً ووثنيين على السواء. اليهود أعماهم تمسكهم الحرفي المتحجر بالناموس وقسوة قلوبهم حتى ادعائهم القدرة على تطويع التاريخ الإلهي. أما الوثنيون فاستمرار ضلالهم خارج الهَدي الإلهي أبقاهم أسرى العمى الروحي. العالم برمته كان إذاً أعمى، وإن اختلفت الأسباب المباشرة لعماه. إنطلاقاً من هذه المقدمة نقول إن الأعميين في نصنا الإنجيلي لهذا اليوم يمثلان العالم بجناحيه، اليهود والأمم، العائد إلى السيد تائباً، مؤمناً به مسيحاً ومخلّصاً، وملتمساً منه النور. وإذا قرأنا هذا الإنجيل بإزاء وضعنا الحالي، أي في قراءة تطبيقية عملية، يتضح لنا أننا غالباً ما نكون في العمى الروحي إن بسبب تمسكنا بسوء فهم للناموس الإلهي، وهنا نشابه اليهود الضالين، أو بسبب عبادتنا لأمور الدنيا مستمدين منها الحياة، لنكون كوثنيي تلك الأيام عابدي أصنام.

نعود إلى الإنجيل. الأعميان يصيحان في إثر يسوع طلباً للرحمة، بصفته «ابن داود» أي المسيح الفادي الذي كان معروفاً أنه يأتي من صلب داود. في صرخة الأعميين أولاً إعلان إيمان بكل ما أعلنته الكتب قديماً، وبشخص يسوع الناصري مسيحاً مخلّصاً. أنت لا تطلب الرحمة من أي كان، ولا تلتمس الشفاء والنور إلا ممن آمنت بأنه نبع النور والشفاء. هنا ثمة ما يستدعي الانتباه وهو أن كثيرين ممن كانوا يعاينون آيات الرب وقوة تعاليمه بقوا غير مؤمنين، ورجلان أعميان يأتيان إلى يسوع من أجل الخلاص، فقط على ما سمعوه من شهادات. لعل الإنسان متى أحس بضعفه وشقائه يسهل عليه التماس الرحمة. يبقى أن يعي الإنسان أنه بلا الله أعمى شقي وكل معتقداته زيف وعبادة وثن.

يلفتنا في هذا الإنجيل أن السيد له المجد انتظر وصوله إلى البيت الذي كان قاصده، قبل أن يلتقي الأعميين اللذين كانا في إثره. يقودنا التأمل في هذه الفكرة إلى أمرين أساسيين: الأعميان بقيا مثابرين في الالتماس جادّين في إثر السيد وإن بدا غير سامع. المثابرة والجد في امتدادنا نحو الله هما الأساس. أما الأمر الثاني فهو خاصية وحميمة اللقاء بين الرب

الإنجيل

(متى ٩:٢٧–٣٥)

في ذلك الزمانِ فيما يسوعُ مجتازٌ تبعهُ أعميانِ يَصيحانِ ويقولانِ ارحمنا يا ابنَ داوُد* فلمَّا دخل البيتَ دنا إليهِ الأعميانِ فقال لهما يسوعُ هل تؤمنانِ أنّي أقدِرُ أن أفعلَ ذلك. فقالا لهُ نعم يا ربُّ* حينئذٍ لمس أعينَهما قائلاً كإيمانِكُما فليكُنْ لكما. فانفتحت أعينُهما. فانتَهَرهما يسوعُ قائلاً أنظُرا لا يَعلَمْ أحدٌ* فلمَّا خرجا شَهَراهُ في تلك الأرضِ كلّها* وبعد خروجهما قدَّموا إليهِ أخرَسَ بهِ شيطانٌ* فلمَّا أُخرِجَ الشيطانُ تكلَّمَ الأخرسُ* فتعجَّبَ الجموعُ قائلين لم يَظْهَرْ قطُّ مِثْلُ هذا في إسرائيل* أمَّا الفريسيون فقالوا إنَّهُ برئيسِ الشياطينِ يُخرجُ الشياطينَ* وكانَ يسوعُ يطوفُ المُدنَ كلَّها والقرى يعلّمُ في مجامِعِهِم ويكرزُ ببشارةِ الملكوتِ ويَشفي كلَّ مَرَضٍ وكلَّ ضُعفٍ في الشعب.

وطالبيه. كلمة الله وابنه الوحيد ارتدى بشريتنا ليرفع عنها لعنة الناموس القديمة، لكي لا يعود الإنسان مسؤولاً عما سبقه من آثام، ولكي «ينير كل إنسان». ويبقى اقتبال هذا النور رهناً بالقرار الشخصي لكل إنسان (يو ٩:١–١٢).

يدنو الأعميان من السيد فيبادرهما له المجد سائلاً «هل تؤمنان أني أقدر أن أفعل ذلك». في مواضع عديدة من الإنجيل نرى السيد يسأل الوافد إليه عن إيمانه أولاً. الإيمان الشخصي الكياني هو مفتاح خلاصنا، وهو في الوقت عينه سبيل المسيح إلى قلوبنا (أف ٣:١٧). لا شك أن الرب كان يعرف مقصد الرجلين ولكنه بالسؤال أعطاهما الفرصة لإعلان إيمانهما على الملأ، بشخصه وبقدراته الإلهية على السواء. لم يسألهما «هل تؤمنان أني أقدر أن ألتمس لكما ما تطلبان» بل «أن أفعل لكما ما تطلبان»، فقالا «نعم يا رب». كأننا بهما يقولان «أنت هو القادر، أنت هو الإله الحق». من لا يؤمن بألوهية المسيح وبمساواته للآب في الجوهر، بكل كيانه، لا يخلص به.

«كإيمانكما فليكن لكما»، يقول السيد الرب. معجزة الإبصار تأتي شهادة للحقيقة التي أعلناها، وبتأملنا هذه الكلمات عميقاً نستنير معهما. «بمقدار ما تؤمنان أعطيكما»، وكان لهما كل ما التمساه إذ انفتحت عيونهما وصارا مبصرين. المعجزة تأتي أيضاً دليلاً على قوة فعل الإيمان من جهة، وتأكيداً على استحالة اقتفاء مقاصد الله بلا النور الآتي من عنده. «نورُكَ وحقُّكَ هما يَهْديانني ويأتيانِ بي إلى جَبَلِ قُدْسِكَ وإلى مساكِنِكَ»، يقول صاحب المزامير (مز ٤٣:٣). لمسة السيد على أعين الأعميين أتت تكمل أمره الإلهي، وهي دلالة على قوة حضوره بالجسد بيننا والمستمر في أسرار كنيسته. في اللمس أيضاً تحسّسٌ لعله يشير من جديد إلى حميمية العلاقة مع الفادي القدوس.

يلفت بعض الآباء انتباهنا إلى أن الأعميين آمنا أولاً ثم أبصرا، وليس العكس. فنحن علينا إذاً أن نفهم أننا بالإيمان نستحق ما نلتمس، لا نبني إيماننا على أساس ما يعطى لنا. بالعمل على إيمانه الشخصي يرتقي الإنسان إلى اقتناء ملكوت الله، أي تلك الحياة الدائمة مع الله وفيه، فيصبح ابناً للنور والنهار (١ تسا ٥:٥)، بل ويصبح نوراً للعالم كله كما هي أصلاً دعوته (متى ٥:١٤). «نعم يا رب، أنا أعرف أنك قادر»، هذا هو اعتراف المؤمن الحق وسبيله إلى الخلاص متحداً بالمسيح فاديه.

بعد أن شفاهما أمر السيد الأعميين بشدة أن يبقيا الأمر سراً، وهو عالم مسبقاً بأنهما سوف يحدّثان بما صنع الله لهما في كل مكان، وله في هذا تدبير. فبالإضافة إلى أنه أراد أن لا يستثير غليان الشعب وحسد الفريسيين، يرسم الرب يسوع هنا قدوة لسامعيه ومريديه. فهو يعلّمنا بالمثال أن لا نسعى إلى استعراض فضائلنا بل نبقي عليها مكتومة، والله يكشفها متى رأى فيها بنياناً للآخرين. إن كان فينا شيء من فضيلة فهو بنعمة الله ومنّة منه لا فضل لنا فيها البتة. ومن شاء التمثّل بالسيد لا يعنيه سوى خير الآخرين، وإن سعى إلى تقديس ذاته فلكي تزداد في عالم الأرض القداسة. ابن الله الوحيد، المساوي لأبيه في الجوهر والذي به كان كل شيء، ما انحدر إلى أعماق مأساتنا في استعراض مجد وقوة، بل وديعاً متواضعاً حاملاً أوجاعنا وأحزاننا (اشعياء ٥٣:٣–٤)، حالاً بيننا لـ«يكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب»، على ما يختم به إنجيلنا لهذا اليوم.

تأمل

إذا كان طبيب الأرواح والأجسام قد حضر ليشفي أمراضنا فكيف لا نُقبِل إليهِ فرحين مسرورين. وإذا كان هؤلاء المرضى تركوا المنازل والإخوان والأهل والمكاسب والزراعات وتبعوا المسيح حيثما كان فما بالك يا هذا تستصعب الذهاب إلى مجامع المؤمنين. وإذا كان أحدنا يتألم بعض أعضاء جسدهِ ولو كان عضواً دنيًّا فيلازم بيوت الأطباء ويبالغ في الحمية واستعمال الأدوية إلى أن يعود ذلك العضو صحيحاً كما كان فكيف نغفل نحن عن العناية بالنفس ولعلَّها في الأكثر تكون مصابةً بأنواع من الأمراض فتكون رمداء العين مقروحة القلب وارمة الكبد مخلَّعة المفاصل قد جمعت عدَّة أمراضٍ مهلكة ونحن لا ننظر إليها. وإذا كان الذين يترددَّون إلى دور الولايات وينظرون إلى المحابيس مغلولين بالسلاسل والقيود وأناسٌ منهم يُضرَبون بالسياط وآخرون يُعلَّقون وغيرهم يعذَّبون

قراءة الكتاب

لقد تساءل أحد الفلاسفة القدماء ما إذا كان يستطيع المرء أن يدوس مرتين في مياه النهر ذاتها. فكرة السؤال ذاتها طُرحت منذ نشأة الكتاب المقدس قديماً ولغاية اليوم، فتساءل البعض هل يمكن للقارئ أن يقرأ أحد النصوص الكتابية مرتين ويحصل على نفس المعنى؟ وكما كان الجواب عن السؤال الأول نعم ولا في آن، كذلك هو الجواب على الطرح الثاني. سوف يتضح الجواب عندما يعي المرء عمّ يبحث حين يقرأ النص الكتابي وما الذي يبتغيه.

منذ نشأة التفسير الكتابي نلاحظ نوعين من المفسّرين والقُرّاء. لدينا أولاً «الحرفيين»، وهم أولئك الذين يقرأون الكتابات المقدسة على أنها كُتب تاريخية وتقدم لنا مجموعة وقائع وأحداث منذ بدء الخليقة وستة أيام الخلق، إلى المجيء الثاني وأبواق ملائكة السماء ومكان الآخرة. في المقابل لدينا العلماء الذين يتبنون المقاربة التاريخية النقدية، فلا يركزون على الدقة التاريخية الواقعية للنصوص الكتابية كما يشككون بدقتها، لكنهم يركزون على فحوى النصوص وما تحمله من معانٍ بين سطورها، وعلى الظروف التي أملت كتابة هذه النصوص وعلى دورها في تنمية إيمان الجماعة.

رغم تباعد، أو حتى تناقض، هاتين المقاربتين هناك شيء مشترك بينهما. فكلاهما يتوافقان على المعنى «الحرفي» المباشر لنصوص الكتاب فيقولان ان هذا هو المعنى الذي قصده كاتب النص، وهذا ما أراد قوله.

اللاهوتيون المسيحيون الأوائل وعوا انه لا يمكن حصر التفسير الكتابي في إحدى هاتين المقاربتين المذكورتين أعلاه. الكاتب المسيحي أوريجنس كتب في القرن الثالث ضد المقاربة التاريخية الحرفية (الأولى) في تفسيره قصص الخلق في سفر التكوين. قال: «من هو الإنسان الذكي الذي يعتقد ان اليوم الأول والثاني والثالث، وان المساء والصباح، وجدت بدون الشمس والقمر والنجوم والسماء. ومن هو الغبي الذي يعتقد ان الله، كمثلِ مزارعٍ، غرس الجنة شرقي عدن؟» هذا ليس تشكيكاً بالكتاب المقدس لا سمح الله. لكن هذا يؤكد على ان النصوص الكتابية تحمل أكثر من معنى، وأن المعنى الأساسي نادراً ما يكون المعنى «الحرفي» المباشر أو المنحى «التاريخي». لذلك فإن أوريجنس يتابع: «عندما قيل ان الله مشى «في الجنَّةِ عندَ هبوبِ ريحِ النهار» (تك ٣: ٨) وان آدم وجد نفسه مختبئا وراء إحدى الأشجار، لا أعتقد ان أحداً يشك ان هذه صورة تعبيرية تشير إلى أمور اسرارية إيمانية في قالب قصصي تاريخي وليس من خلال حدث حقيقي». الله روح فكيف يتمشى، هذا ما يقصد بكلامه. إذاً هناك بُعد آخر من خلال القصة يجب الولوج إليه.

لكن أوريجنس رأى مع كافة آباء الكنيسة حقائق تاريخية وأحداث كتابية إلى جانب الصور الرمزية التعبيرية: حقيقة ولادة الرب يسوع من العذراء تاريخية، كذلك عجائبه وقيامته من بين الأموات. لقد فهم المفسرون الكتابيون الأولون هذه الأحداث حرفياً وتاريخياً وألّفوا على اساسه ادستور الإيمان النيقاوي القسطنطيني. لكن هذه الحقائق التاريخية تحملنا إلى ما هو أبعد من المعنى الحرفي، إلى المعنى الروحي والاسراري. يمكن فهمها ليس فقط كحقائق تاريخية بل كصور تلهمنا في حياتنا والحياة الآتية.

على هذا الأساس ميّز آباء الكنيسة دوماً بين مختلف اتجاهات معاني الكتاب. لتوضيح الأمر نورد هذا المَثَل. في حدث خروج الشعب العبراني من مصر بقيادة موسى

فيرتاعون لهذه المشاهد ويجتنبون الأعمال التي من شأنها أن تفضي بهم إلى هناك طول زمانهم، فكيف لا ترهب من مجلس القضاء واجتماع الأمم وجلوس الديَّان للمحاكمة وهول العذاب الرهيب والتهاب الجحيم والخلود فيه إلى الأبد مع الشياطين. وإذا كان سيدنا له المجد بذل ذاته عنا وشقَّ كتاب رُقّنا وغسل أدناس خطايانا واعتنى بمداواة أمراضنا فكيف نكون مخالفين لأوامره. وإذا كان أحدنا إذا أخطأ مرَّة واحدة إلى من أحسن إليه مرَّتين يُقال انهُ شريرٌ وخائنٌ فكيف نحن الذين نكون دائماً مخالفين لرضى إلهنا غافلين عن إحساناته التي لا تُحصى. وماذا نستحقُّ من العقوبات لسوء مكافأتنا له. وأيُّ الألقاب الرديئة نستحقُّ أن يُطلق علينا. فسبيلنا أن نتذكر إحسان ربنا ونمجِّد الشافي لأمراضنا ونحذر من الرجوع إلى الخطايا بعد تركها لنفوز بنعمة ربنا الذي له المجد إلى الأبد، آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

النبي وعبور البحر الأحمر هناك أربعة مستويات من التفاسير والمعاني:

+ المعنى الحرفي التاريخي الذي يتحدث عن خروج الشعب العبراني من مصر باتجاه أرض الموعد.

+ المعنى الرمزي في الاستعاري والنمطي الذي يرى في شخصيات وأحداث العهد القديم صوراً أو نماذج تحققت في المسيح وأسرار الكنيسة، مثل موسى ويشوع والمن الذي أمطره الله للشعب والصخرة التي أنبعت ماءً في البرية.

+ المعنى الأخلاقي الذي يرى في رحلة العبرانيين صورة لاهتداء النفس وترحالها من الخطيئة والموت نحو النعمة و«جِدَّةِ الحياة» (رو ٦:٤).

+ المعنى الاسراري الذي يتحدث عن رحلة المؤمن نحو المجد الأبدي.

هذا يعيدنا إلى السؤال الأساسي: هل يستطيع القارئ قراءة نفس النص مرتين؟ من جهة الجواب نعم. النص الكتابي الواصل إلينا هو حقيقة مجرَّدة بحد ذاته. لقد تمَّت كتابته في لحظة معينة في الماضي وصار جزءاً من قانون الكتاب المقدس ووصل إلينا. قد تختلف ترجمات هذا النص الواصلة إلينا، إلا ان الأصل العبري أو اليوناني لا يتغيَّر، ونحن نقرأه مرة أولى وثانية وثالثة وأكثر كلما قرأنا الكتاب. الكلمات لا تتغيَّر. معنى هذه الكلمات يتغيَّر بحسب الظروف التي نقرأ فيها هذا النص والوضع الروحي الذي نحن فيه في تلك اللحظة، وما نسعى أن نجد في هذه الشهادة الكتابية بإلهام الروح القدس. هذه الأمور تقرر الانطباع الذي سوف تتركه فينا كلمات النص في أي وقت. إذا قرأنا المزمور ٢٣ «الرب راعيّ فلا يعوزني شيء...»، نحن نلتقي بالمسيح الراعي الصالح الذي يقودنا «إلى مياه الراحة»، ويرد نفوسنا «إلى سُبُل البرّ» بحضوره وسلامه ونعمته. وإذا قرأنا المزمور نفسه مرة أخرى ونحن في حالة اضطراب، فإننا نرى أنفسنا ننجذب إلى صرخة صاحب المزامير «أيضاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي». لم يختلف المزمور إنما طريقة قراءته.

أيضاً، طريقة مقاربتنا لنصوص آلام المسيح سوف تقرر ما إذا كنا نرى في الصليب عظم عذاب يسوع الجسدي والنفسي، أو صورة ذبيحته الفدائية، أو دعوة لنا للنضال والبقاء أمناءله من خلال نظام نسكي وأعمال محبة، أو وعداً بأنه من خلال الصليب أتى الفرح إلى كل العالم، وأن هذا الفرح سوف يكون نصيبنا حين يستقبلنا يسوع في مجد ملكوته.

النص الكتابي هو واحد ثابت. هو كلمة الله الواحد غير المتغيّر الذي هو هو أمس واليوم وغداً، الذي أوحي به إلى موسى والأنبياء. قال بولس الرسول: «فإذ حصلتُ على معونةٍ من الله بقيتُ إلى هذا اليوم شاهدًا للصغير والكبير وأنا لا أقول شيئًا غير ما تكلّم الأنبياءُ وموسى أنه عتيدٌ أن يكون» (أع ٢٦:٢٢). وكان اليهود يصغون إلى كلام الله برغبة شديدة ونشاط كل يوم ليعرفوا صحة تعاليم بولس وسيلا (أع ١٧:١١) فاحصين الكتب. وبمقدار ما هو النص ثابت فهو حقيقة حيَّة، يتغيَّر دائماً لأنه مفعم بحضور الروح القدس وقدرته الإلهامية. الروح القدس يعيد كتابة النص كما هو في كل لحظة من حياتنا،في كل خطوة من رحلتنا التي تقودنا نحو كمال الحياة الآتية من خلال خبراتنا اليومية.

هذه الكتابة الدائمة المتجددة هي التي تجعل الكتاب المقدس ليس مجرد سرد تاريخي أو وثيقة للدراسة والتحليل، بل كلمة حيَّة تنقل الحق والحياة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb